



ليس هناك صورة تعبّر عن مأساة الحرب السورية أفضل من المفارقة التي أظهرت سعادة النازحين، لحظة خروجهم من حصار الجوع والموت، بينما كانوا على طريق الموت الآخر الذي ينتظرون في مخيمات التشرد واللجوء وعواصف الثلج على حدود بلدتهم. أمام هذا المشهد، تظهر محدودية ما حصل في الأيام الأخيرة من "مكتسبات"، سواءً اتجسد في اتفاق وقف إطلاق النار، أو إعلان موسكو الذي يشير إلى بداية تفاهم روسي تركي إيراني، أو تصويت الجمعية العامة للأمم المتحدة على آلية لتوثيق جرائم الحرب وملاحقة المسؤولين عنها. ومع ذلك، ما من شك في أن هذه المكتسبات الصغيرة بدأت تثير آمال سوريين كثريين سئموا الموت، وأصبحوا، مثل إخوانهم الذين وجدوا أنفسهم فرحين بخروجهم من تحت الحصار والقصف، مع معرفة ما ينتظرون في حياة التشرد من عذاب وضياع، كالمستجير من الرمضاء بالنار.

فهل تنجح موسكو في إخماد نيران الحرب التي ساهمت في تمديد أجلها، وتحصد ثمار جهودها، أم سوف تغرق في وحولها، كما يتمنى لها منافسوها، ليس في الغرب فحسب، ولكن في منطقة الشرق الأوسط أيضاً؟ سوريا بين التسوية الروسية وال الحرب الدائمة الإيرانية.

نجمحت موسكو في فرض نفسها على جميع الأطراف المنافسة لها في سوريا، وهي تتصرف تجاههم، كما لو كانت قوة انتداب رسمية حاصلة على تفویض دولي لإدارة الأزمة السورية، وإيجاد مخرج لها. وقد عزّز موقفها في الأشهر الأخيرة نجاحها في إسقاط حلب بالتأكيد، لكن أيضاً، من طرف آخر إجبار حليفها الإيراني على قبول وقف النار وفتح المعابر للنازحين، وتمريرها يوم 19 من ديسمبر/كانون الأول الجاري قرار مجلس الأمن القاضي بإرسال قوات مراقبة دولية إلى حلب، وإعلانها أخيراً عمما يشبه خطة طريق، حتى لو كانت تبسيطية، لإطلاق عملية مفاوضاتٍ تبدأ بوقف شاملٍ لإطلاق النار على كامل الأراضي السورية، قبل إطلاق مفاوضاتٍ تهدف إلى التوصل إلى تسويةٍ سياسية في ظل بقاء الأسد ومشاركة المعارضة، في إطار تعديلٍ متفق عليه للدستور وإصلاح تدريجي في بنية السلطة وأساليب الحكم.

على الرغم من تواضعه، يتعارض هذا المشروع، مع مخططات طهران بشكل قاطع. فليس لطهران أي مصلحةٍ بوقف الحرب السورية. وبينما تريد موسكو استثمار سقوط حلب لتعزيز فرص إيقاف الحرب، تطمح طهران إلى تحويل سقوط حلب إلى فرصة لانقلابٍ شاملٍ في علاقتها بسوريا والمنطقة، وتحويل سوريا إلى عراقٍ ثانٍ تتحكم به مليشياتها وحرسها الثوري. وهذا ما أكدّه سعي هذه المليشيات، حتى اللحظة الأخيرة، إلى تعطيل الاتفاق في حلب، على أمل إفشال الخطط الروسية بأكملها.

ما حدا بموسكو إلى مراجعة خططها، ودعوة طهران إلى لقاء ثلاثي بحضور أنقرة، ومع استبعاد الأطراف الأخرى، بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية، والمملكة العربية السعودية، الطرف العربي الرئيسي المنخرط منذ البداية في المسألة السورية.

مشكلة طهران أنها، وهي الطرف الذي استثمر أكثر من أي طرف آخر في الحرب ضد الثورة السورية، وبذل المال والسلاح، وخسر سياسياً وأخلاقياً كما لم تخسر أي دولة أخرى، لا تزال بعد مرور ست سنوات على الحرب الطرف الأكثر افتقاراً من أي طرف آخر متورطاً فيها لقاعدةٍ قانونية أو سياسية، تضمن لها الحفاظ على نفوذها وتوسيعه في المستقبل. رهانها الوحيد هو على توسيع دائرة قاعدتها الطائفية أو المذهبية، وهذا ما لا يزال يحتاج إلى عمل وتحضيرات طويلة. لذلك، تشعر طهران أن دخول النظام السوري، أو إدخاله، في المفاوضات الآن، وبرعاية روسية يصعب تحديها، يجري على حسابها، وهو يهدّد بأن يسحب منها القرار السوري الداخلي، ويهدّر استثماراتها الطويلة، ويدين سياسة المرشد الأعلى السورية بالفشل والإفلات السياسي والأخلاقي الذي لا يعادله سوى الإفلات الذي عرفته سياسة ألمانيا النازية المجنونة في الحرب العالمية الثانية.

لذلك، ليس لطهران، التي تراهن على إبقاء سوريا جزءاً عضوياً من إمبراطوريتها، بعد تمويل حربٍ وحشيةٍ لكسر إرادة شعبها، خيار أفضل من استمرار الحرب، وتوسيع دائرة الفوضى والخراب، كما هو الحال في العراق، حتى تحصل على الوقت الضروري لبناء قواعد نفوذها، سواء بتغيير التسليح السكاني جزئياً، أو بالتحكم بمؤسسات الدولة وأجهزتها، على مستوى أوسع مما حققه حتى الآن. وهي تراهن من أجل البقاء في سوريا، وإبقاءها رهينةً لها، على تجنيد مجموعاتٍ مرتبطة بها، مذهبياً واجتماعياً، مستفيدةً من الأقليات المذهبية المحلية القريبة منها، ومن الجاليات الجديدة التي تريد توطينها في الواقع الاستراتيجي حول حلب ودمشق وحمص، كما تراهن على التعطيل المديد لعمل الدولة، وإلغاء أي احتمالٍ لإعادة بنائها، في ما يشبه نموذج عمل الحركة الحوثية في اليمن، ما يفتح أمامها إمكانية العمل بهدوء وحرية على تغيير الواقع الاجتماعية والديمغرافية والمذهبية.

لم تكن التسوية السياسية، أو وقف النار، بما ما كانت تنتظره طهران من سقوط حلب أو إسقاطها، وإنما تكريس الانتصار الكامل، وإلغاء فكرة التسوية نفسها التي لا ترى مكاناً لها مع معارضٍ تصف جميع منتسبيها بالإرهابيين، وفي أحسن الأحوال، بالصهيون أميركيين. ومهما حاولت موسكو أن تطمئنها، ستظل طهران تشعر بأن القوة الروسية التي أنقذت مشروعها من الهزيمة، عندما تدخلت عسكرياً لصالحها وصالح الأسد عام 2015، هي التي تسرق الانتصار منها، وتحرمها من رسملة استثماراتها وتحول بينها وابتلاع فريستها المستحقة، كما كانت تنتظر بثقةٍ كاملة. تشعر طهران، من دون شك، كما لو أن موسكو، بقصد أو من دون قصد، تحاول أن تخطف اللقبة من فمه. وما يؤرقها أكثر أن الوقت يدهمها، ولم يعد لديها فرصٌ كثيرةً للمناورة قبل قدوم الإدارة الجديدة، التي يتميز عديدون من شخصياتها، إن لم يكن معظمهم، بمعادتهم الشديدة سياسات النظام الإيراني. ومن المفترض أن يعزّز التفاهم الأميركي الروسي المحتمل موقف موسكو، و يجعلها أكثر قدرةً على الوقوف في وجه المشاريع الإيرانية في سوريا.

هناك أكثر من عاملٍ يدعو إلى التصادم بين السياسيين، الروسي والإيراني، في سوريا. أولها اختلاف الأجنadas. فبينما تعتقد موسكو أنها في أفضل وضع لحصاد ما زرعته، وإن أي إضاعةٍ لوقت يهدّد مكاسبها، تشعر طهران بأنها بالكاد انتهت من نصب الفخ للطريدة، وكل ما فعلته، في السنوات السابقة، كان تمهدًا لحل عرى المجتمع وتفكيكه وتدمير الدولة.

والآن، جاء أوان الزرع ووضع البذار، أي العمل على شرعنة المليشيات، وتشييع جزءٍ من المشردين والمحتجين وقلب المجتمع رأساً على عقب. ولذلك، هي بحاجة إلى أكثر ما يمكن من الوقت لتحقيق أهدافها وتكرис مكاسبها. وثانيها الهدف،

في بينما تنتظر روسيا من مناورتها السورية تغيير نوعية علاقتها المختلة مع الغرب، وإعادة موضعها قوًّا أو قطباً رئيسياً في صياغة أجندـة السياسة الدوليـة. وبالتالي، اكتساب اعتراف الغرب وشراكته. وتريد أن تنجح في تقديم نفسها دولةً قادرةً على المساهمة في حل الأزمـات الدوليـة. وتنتظر إيران إلى سوريا فريـسة تـريد ابتلاعـها، لـتكـبـير نفسـها وتعظـيم قـوـتها وتحسـين فرص صراعـها الـوجـوي مع الغـرب في المـشـرق وفي ما وراءـه. وثالثـها الاستـراتـيجـية. فـما تـطـمح إـلـيـه مـوسـكـو هـو استـخدام نـجـاحـها في سوريا، بـحـسـمـ الحرب عـسـكريـاً أو ما يـشـبه حـسـمـها لـصالـحـ النـظـامـ، وـدـفـعـ الأـطـرافـ إـلـى القـدـومـ إـلـى طـاـولـةـ المـفاـوضـاتـ، وـرـبـما التـوـصـلـ إـلـى تـسوـيـةـ تـنـهـيـةـ الثـورـةـ وـالـنزـاعـ مـعـاـ، إـلـى إـعادـةـ بنـاءـ الدـولـةـ الـتـي أـصـبـحـتـ أـكـبـرـ قـاعـدةـ عـسـكريـةـ وـسـيـاسـيـةـ لـهـا خـارـجـ روـسـياـ، وـتـأـمـينـ إـدارـتـهاـ السـيـاسـيـةـ. وـتـرـاهـنـ إـيرـانـ، بـالـعـكـسـ، عـلـى خـرـابـ سـوـرـيـةـ وـالـشـرـقـ الـأـوـسـطـ بـأـكـملـهـ، وـنـشـرـ الفـوـضـيـ وـالـفـرـاغـ الـإـسـتـراتـيـجيـ فـيـهـ، لـتـرـوـيـعـ الغـربـ وـتـهـديـدـهـ وـانتـزـاعـ اـعـتـرـافـهـ بـنـظـامـهـ وـمـكـتـسـبـاتـهـ، وـهـيـمـنـتـهاـ إـلـيـقـلـيمـيـةـ.

مـأـذـقـ الـاحتـلـالـ إـلـيـرانـيـ:

لا يعني هذا أن التـحـالـفـ الروـسـيـ الإـيـرانـيـ مـهـدـدـ بالـتـفـكـكـ، فـلـيـسـ هـنـاكـ أـيـ مـصـلـحةـ لـطـهـرـانـ أـوـ "ـمـصـلـحةـ روـسـيـاـ تـقـضـيـ التـوـصـلـ إـلـىـ حلـ سـيـاسـيـ لـلـأـزـمـةـ، أـوـ عـلـىـ الأـقـلـ إـظـهـارـ قـدـرـتـهـاـ وـإـرـادـتـهـاـ عـلـىـ إـيـجادـهـ"ـمـوسـكـوـ فـيـ إـنـهـاءـ تـحـالـفـهـاـ المـفـيدـ منـ نـوـاـحـ عـدـيدـةـ أـخـرـىـ. فـمـوسـكـوـ لـاـتـزالـ تـحـتـاجـ إـلـىـ القـوـةـ الـبـرـيـةـ إـلـيـانـيـةـ لـإـحـكـامـ قـبـضـتـهـاـ عـلـىـ سـوـرـيـةـ، تـمـاماـ كـمـاـ تـحـتـاجـ طـهـرـانـ إـلـىـ الـمـظـلـةـ الـجـوـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ روـسـيـةـ، لـلـتـمـكـنـ مـنـ الـبقاءـ، وـتـرـسيـخـ حـضـورـهـاـ فـيـ سـوـرـيـةـ الـآنـ، وـفـيـ أـيـ تـسـوـيـةـ قـادـمـةـ. لـكـنـ الـحـفـاظـ عـلـىـ التـحـالـفـ أـوـ السـعـيـ لـلـحـفـاظـ عـلـىـهـ لـاـ يـلـغـيـ الـخـالـفـ فـيـ الـمـصـالـحـ، وـلـاـ يـعـنـيـ اـنـتـفـاءـ التـنـازـعـ عـلـىـ الـأـوـلـوـيـاتـ. وـهـذـاـ هـوـ الـحـالـ فـيـ مـاـ يـتـعـلـقـ بـتـصـوـرـ صـيـغـةـ الـخـروـجـ مـنـ الـحـرـبـ الـمـدـمـرـةـ السـوـرـيـةـ وـالـمـهـدـدـةـ لـجـمـيعـ الـأـطـرافـ، باـسـتـثـنـاءـ طـهـرـانـ الـتـيـ تـحـرـكـ الـخـيوـطـ مـنـ بـعـيدـ، وـتـرـاهـنـ عـلـىـ قـوـىـ محلـيـةـ وـإـقـلـيمـيـةـ أـكـثـرـ مـاـ تـزـجـ نـفـسـهـاـ فـيـ الـمـعـارـكـ الـيـوـمـيـةـ. وـلـاـ عـلـاقـةـ لـمـاـ تـخـشـاهـ طـهـرـانـ بـرـوـسـيـاـ، أـوـ بـمـصـالـحـهـاـ الـمـبـاـشـرـةـ مـعـ روـسـيـاـ، وـلـكـنـ بـمـشـرـوـعـ روـسـيـاـ فـيـ سـوـرـيـةـ. فـمـصـلـحةـ روـسـيـاـ تـقـضـيـ التـوـصـلـ إـلـىـ حلـ سـيـاسـيـ لـلـأـزـمـةـ، أـوـ عـلـىـ الأـقـلـ إـظـهـارـ قـدـرـتـهـاـ وـإـرـادـتـهـاـ عـلـىـ إـيـجادـهـ، يـعـزـزـ مـاـ تـطـمحـ إـلـىـ تـكـرـيـسـهـ دـورـاـ إـقـلـيمـيـاـ وـدـولـيـاـ، وـيـضـاعـفـ نـفـوزـهـاـ فـيـ الـمـشـرقـ وـفـيـ دـوـلـ الـخـلـيـجـ الـعـرـبـيـ أـيـضاـ، وـلـاـ مـصـلـحةـ لـهـاـ بـالـاصـطـفـافـ وـرـاءـ إـيـرانـ أـوـ الـالـتـصـاقـ بـهـاـ. وـهـذـاـ يـتـطـلـبـ مـنـهـاـ أـنـ لـاـ تـسمـحـ لـطـهـرـانـ بـأنـ تـكـونـ الـرـابـعـ الـأـوـلـ أـوـ الـأـكـبـرـ فـيـ سـوـرـيـةـ، بلـ أـنـ تـسـعـىـ، بـالـعـكـسـ، إـلـىـ الـحدـ مـاـ أـمـكـنـ مـنـ أـطـمـاعـهـاـ لـلـحـفـاظـ عـلـىـ عـلـاقـاتـهـاـ إـلـيـقـلـيمـيـةـ، وـاـكـتسـابـ مـوـقـعـ الـدـوـلـةـ الـعـالـمـيـةـ.

في المـقـابـلـ، تـطـمحـ طـهـرـانـ إـلـىـ أـنـ تـحـولـ نـهـاـيـةـ الـمـواـجـهـةـ فـيـ سـوـرـيـةـ اـنـتـصـارـاـ تـارـيـخـياـ عـلـىـ الغـربـ مـنـ خـلـالـ اـنـتـصـارـهـاـ عـلـىـ الـعـربـ وـدـوـلـ الـمـنـطـقـةـ الـقـرـيـبـةـ مـنـهـ أـوـ الـمـحـسـوـبـةـ عـلـيـهـ، وـأـنـ تـجـعـلـ مـنـ إـلـحـاقـهـاـ سـوـرـيـةـ بـهـاـ غـنـيـمةـ حـرـبـ، تـحـكـرـ فـيـهـاـ وـحـدهـاـ الـنـفـوذـ وـالـسـيـطـرـةـ وـالـقـرـارـ. سـوـرـيـةـ الـمـحرـرـةـ مـنـ شـعـبـهاـ الـثـائـرـ هـيـ، فـيـ نـظـرـ طـهـرـانـ الـخـامـنـيـةـ، خطـ دـفـاعـ اـسـتـراتـيـجيـ عنـ أـمـنـ إـيـرانـ الـقـومـيـ، لـاـ يـهـمـ مـنـ يـسـكـنـهـاـ، وـمـاـ مـصـيـرـ شـعـبـهاـ، تـمـاماـ كـمـاـ هـوـ الـحـالـ فـيـ الـعـرـاقـ وـلـبـنـانـ.

بعـارـرـةـ أـخـرـىـ، يـسـتـندـ نـجـاحـ مـوسـكـوـ، فـيـ تـحـقـيقـ أـهـدـافـهـاـ فـيـ الـاعـتـرـافـ إـلـيـقـلـيمـيـ وـالـدـولـيـ بـهـاـ، قـوـةـ عـالـمـيـةـ إـيجـابـيـةـ، وـتـرـسيـخـ وـجـودـهـاـ، لـيـسـ فـيـ سـوـرـيـةـ فـحـسـبـ، وـإـنـماـ فـيـ الـمـشـرقـ وـالـشـرـقـ الـأـوـسـطـ كـلـهـ، بـوـصـفـهـاـ قـوـةـ اـسـتـقـرـارـ وـأـمـنـ وـسـلـامـ، يـمـكـنـ الـاعـتمـادـ عـلـيـهـاـ، وـالـاـرـتـقاءـ بـنـفـسـهـاـ إـلـىـ مـصـافـ الـدـوـلـةـ الـعـالـمـيـةـ الـحـضـورـ، كـمـاـ كـانـتـ فـيـ الـعـهـدـ السـوـفـيـيـتـيـ السـابـقـ، عـلـىـ قـدـرـتـهـاـ عـلـىـ وـقـفـ الـحـرـبـ. وـلـاـ يـمـكـنـ تـحـقـيقـ ذـلـكـ مـنـ دـوـنـ تـسـوـيـةـ سـيـاسـيـةـ، وـتـفـاهـمـ بـيـنـ السـوـرـيـيـنـ، حـتـىـ لوـ رـبـحـتـ عـسـكـرـيـاـ.

فالـنـظـامـ السـوـرـيـ لمـ يـعـدـ مـوـجـودـاـ بـالـفـعـلـ، وـلـاـ بـدـ مـنـ إـيـجادـ بـدـيلـ لـهـ، وـالـطـغـمـةـ الـتـيـ قـادـتـ الـدـوـلـةـ إـلـىـ الـهـلاـكـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـكـونـ هـيـ نـفـسـهـاـ الـبـدـيلـ، وـلـاـ سـبـيلـ لـتـحـقـيقـ الـحـدـ الـأـدـنـىـ مـنـ التـفـاهـمـ السـوـرـيـ السـوـرـيـ مـنـ دـوـنـ إـجـراءـ تـعـديـلـاتـ دـسـتـورـيـةـ وـإـصـلـاحـاتـ سـيـاسـيـةـ وـمـشارـكـةـ لـجـمـيعـ الـأـطـرافـ فـيـ الـحـكـمـ الـجـدـيدـ. أـمـاـ طـهـرـانـ الـتـيـ تـعـرـفـ أـنـ نـظـامـ الـأـسـدـ قـدـ انـهـارـ وـتـفـكـكـ، وـلـمـ يـبـقـ مـنـهـ

شيء، فهي تريد أن تعد نفسها و مليشياتها لتكون النظام الوريث، أي أن تبني نظاماً يستند كلّياً إليها، وتحرّكه روح التبشير المذهبية والعداء لشعوب الإقليم ذاته الذي يحرّكها، وهي لا تتمسّك بالأسد إلا قناعاً تخفي به نظام الاستعمار والإحلال الحقيقي الذي تسعى إلى إقامته بدليلاً لنظامه.

من هنا، يبدو لي أن من الصعب أن تتجنب طهران الصدام مع ما لا ينبغي وصفه بأكثر من مشروع التهدئة الروسية في سورية، ما لم تقبل بتخفيف سقف توقعاتها وإعادة تعريف مصالحها وأهدافها التي دفعتها إلى غزو سورية، تحت قناع الدفاع عن نظام الأسد، أو النجاح في إثارة نزاعات أو صراعات جانبية، وربما مع تركيا بشكل رئيسي، لإجهاض العملية السياسية. وهي لم تصرّ على حضور اللقاء الثلاثي في موسكو، وتوقع على بيانه، إلا كي تتمكن من الانقضاض عليه في مرحلة تالية وتعطيل أي تسوية سورية.

على الرغم من شراكتها الكاملة في تحطيم آمال السوريين، ومن تواطؤها مع الأسد وطهران، لحرمانهم من حقهم في تقرير مصيرهم، أي من الحرية والكرامة والسيادة والاستقلال، ما زال من الممكن لموسكو أن تلعب دوراً في مساعدة السوريين على الخروج من المحنّة. ولا يمكن أن يتجسد هذا الدور في المساعدة في التغيير السياسي، وبناء النظام الجديد الديمقراطي الذي ينشده السوريون، فهو ليس من أهدافها، ولا من أولوياتها، وليست قادرة عليه، وإنما في العمل على وضع حد للحرب التي كانت طهران، ولا تزال، الوacd الرئيسي والأول في نارها.

ساهمت كل الأطراف التي انخرطت في الأزمة السورية، بشكل أو آخر، في إطالة معاناة السوريين، بعضها بسبب تأمره، وبعضها بسبب تجاهله وتخاذله، وبعضها بسبب أخطائه وسوء إدارته وبعضها لقلة حيلته، وبعضها، كما هو الحال بالنسبة للمعارضة السورية، لضعف تنظيمه وانقسامه وتنافذه. لكن، ما كان لهذه المأساة أن تصل إلى ما وصلت إليه من الوحشية وزرع الشر والدمار، ولا أن تدوم هذه السنوات الطويلة، من دون إرادة الهيمنة المرضية التي تتقدّم من مشاعر التفوق العنصري، وروح الانتقام من العرب والغرب التي تحرّك النخبة التيوقратية الإيرانية الحاكمة اليوم. ولا أعتقد أن من الممكن إنقاذ المشرق من محنّة الحرب الدائمة التي تدفعه إليها طهران من دون لجم هذه الإرادة، ووضع حد لنظام السلطة الأبوبية والبابوية "الصليبية" التي تخضع لها الدولة الإيرانية، والتي تفرض على الشعب الإيراني الضحية طریقاً واحداً لتحقيق ذاته وطالعاته: هو طريق الحرب والتلوّع والجهاد الطائفي. ما تطمح إليه طهران الخامنئية، باسم نشر الثورة الإسلامية، هو فتح مضاد يلغي نتائج الفتوح العربية الإسلامية، ويعيد إلى الامبراطورية البائدة مجدها وهيمتها. لكن، لن تكون عواقب هذه السياسة، في نهاية المطاف، سوى انهيار إيران وخراب الإسلام ديناً ودنياً في الوقت نفسه.

هل تنجح موسكو في كبح جماح الهيمنة الإيرانية، واحتواء وخش التوسعية القومية والمذهبية المتعطش لمزيدٍ من الدماء والعظمة والانتصارات؟

في الإجابة الإيجابية عن السؤال تكمن مهمة روسيا التاريخية وفرصة موسكو الوحيدة للنجاح في وضع نهاية للحرب السورية، وللحروب العديدة الأخرى التي ولدت من صلبها، وعلى هامشها، بما فيها الحروب الداعشية، وهذا بصرف النظر عن طبيعة النظام السياسي الذي سوف ينجم عن السلام.

المصادر: